

أمراء للبيع...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقب طوبر الليل
أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (١) :

كان شيخنا الامام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن
مجد الدين بن دقيق العيد (٢) لا يخاطب السلطان إلا بقوله :
(يا إنسان) ، فإيخشاه ولا يتعبد له ولا يتخذ له ألقاب
الجروت والعظمة ولا يُزِنه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع
غيره من العلماء . وكان هذا عجيباً ؛ غير أن تمام العجب أن
الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ
عنه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والامراء ولا ينزل
بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء
إلا الحقيقة الانسانية .

ثم كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فإذا خاطب
منهم أحداً قال له (يا فقيه) . على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا
لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرقعة (٣) . ثم يخص علماء

(١) توفي سنة ٧١٢ هـ (٢) كانت وفاته سنة ٧٠٢ هـ (٣) توفي سنة ٧١٠ هـ

قالت : « أبداً .. أبداً .. قوى جداً .. كسيد نصير ،

قلت : « عجيب هذا ... »

فقلت : « كتبك كلها عندنا تراها في كل غرفة ... »

فسألتها : « أمي حسنة التجليد ؟ »

قالت : « لا .. كما اشتريناها .. كل بناتي وأحفادي يقرأونها »

ويحملونها معهم حيثما يكونون »

قلت : « شيء جميل ،

فقلت : « أوه .. لشد ما يفرحون الليلة حين أقول لهم

إني كنت جالسة إلى جانب تيمور بك »

ابراهيم عبيد القادر المازني

حاشية - أرجو من الأستاذ تيمور بك أن يحول إلى الله الذي يملأ به الناس
كما حول إليه حق المازني

الدين بن الباجي وحده بقوله (يا إمام) ؛ إذ كان آية من
آيات الله في صناعة الحجّة لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة
والمباحثة ؛ فهو كالبرهان إجلاله إجلال الحق لأن فيه المعنى
وتثبيت المعنى .

وقلت له يوماً : يا سيدي أراك تخاطب السلطان بخطاب
العامة ، فإن علوت قلت (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛
أفلا يسخطه هذا منك وقد تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة
والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هي ظل الكلمات التي يوصف
الله بها ، ثم جعله الملك إنساناً بذاته في وجود ذاته حتى أصبح
من غيره كالجليل والخصاء ، يستويان في العنصر وبقائتان في
القدر ، وأقله مهما قل هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده
شيء ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدي إيش هذا ؟ إننا نفوس
لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها
في نفسها ؛ فإيخسن بحامل الشريعة أن يتنطق بكلام يرده
الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً ؛ ولو نافق
العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلو نافق في الثوب
الابيض ليست كل طخنة في الثوب الأسود . والمنافق رجل
مغطى في حياته ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته
لامغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني
الظلمة ؛ وذلك يتصل بالدين من ناحية العمل فإذا نافق فقد
كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين
فإذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في
الناس دهرأ بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ويقومون بحجتها ،
ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرأة النور ، تحويه في
نفسها وتلقيه على غيرها فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً .
أندري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء
وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؛ إن أولئك في أخلاقهم
كاللوح من البلور يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ،
وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته
الخشبية لا غير

وكان سلاطانه في دمشق الصالح اسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر عما كنت عليه إلا أن تتخضع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يا مسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدي . أنتم في واد وأنا واد :

ثم قدم إلى مصر في سنة ٦٣٩ فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتغنى به وولاه خطابة مصر وقضاها . وكان أيوب ملكاً شديداً البأس لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا بجيأ ، ولا يتكلم في أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله غيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر . فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والامراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته لسمع هذا الملاء العظيم : يا أيوب ! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر . فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه

فحدثني الباجي قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت ياسيدي كيف كانت الحال ؟ قال يا بني رأيت في تلك العظمة خشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره ، فكان ما باديته به قلت : أما خفته ؟

قال : يا بني استحضرت هبة الله تعالى فكان السلطان أمياً كالقط (١) . ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيت الدنيا كلها ؛ بيد أني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شيء في صورة شيء .

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر ، فإذا أمرناهم فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان . وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي ، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة فهو معه في كل حالة يسأله : - ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والعمدة كعالم السوء هذا الذي لو نطقت أفعاله لقلت لله بلسانه : هم يعطوني الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر أو في بعضه دون بعضه فهو زائف كله . وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع أمثال هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فيزولونهم بذلك منزلة البهائم تقدم أعمالها لتأخذ لبطنها . والبطن الأكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فإذا رأيت لعلاء السوء وقاراً فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل إنها النفاق ، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها

قال الامام وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام (١) . فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالي هلك فيه أو عاش إذ هو في الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره . ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهم القوة قوة لا تغلب . وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف ؛ وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس حتى قال الملك الظاهر يبرس وقد رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى في الملك ، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لانتزع مني المملكة

(١) هو الامام العظيم شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا في عصره توفى سنة ٦٦٠

(١) هذه كلمات الشيخ بحروفها

طمسها أو تحريفها؛ فما بدئ أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها. فإذا كان ذلك فهنا المعنى بإزاء المعنى. فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

ولأنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلا مزوراً في صورة الحق. وههنا تكون الذات مع الذات فيخشع الضعف أمام القوة، وينذل الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها فإذا العالم من السلطان كالخشب البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف كلا يا ولدي! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها. فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير. وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط للذي فيها إذا هي لم تحززه؟

إن العالم الحق كالمسهار؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة...

قال الامام تقي الدين: وطفى الأمراء من الممالك وثقلت وطأهم على الناس؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدياً وشريرة؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها. ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن وإن كان قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حسناً ولا أحسن منه

وقال: ما معنى الأمانة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هي عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله. وكان ينبغي أن تكون هذه الامارة أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد، لأهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهذه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء ممالك، فحكم الرق مستنحب عليهم لبيت مال المسلمين ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق

وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم؛ ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السلام

وأقن الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي

ثم جعلوا يتسبون إلى رضاه ويتحملون عليه بالشفاعات - وهو مصر لا يعبا بجلالة أخطارهم ولا يخشى اتسامه بعداوتهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي

وانتهى ذلك إلى الشيخ الامام فنضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه، وأزمع الهجرة من مصر فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام. فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف يريده حتى طار الخبر في القاهرة ففرغ الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي، وسار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجهم خروج نبي من بين المؤمنين به. واستعلنت قوة الشرع في مظهرها الحاكم الأمر من هذه الجماهير، فقبل للسلطان: إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة، وأطلق له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه، ولبس

طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر - ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادي عليهم للساومة في بيعهم وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالاه كل القاهرة ليتها من يتها للشراء والسوم في هذا الرقيق الغالي

وكان من الأمراء الممالك نائب السلطنة فبعث إلى الشيخ بلاطه ويسترضيه فلم يعبا الشيخ به. فهاج هانجه وقال:

القاهرة المعزية

ووجوب الاحتفاء بعيدها الألفي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- ٢ -

تقرب القاهرة المعزية من عيدها الألفي دون أن يشير ذلك في دوائرنا الرسمية أو الأدبية كبير صدى ؛ ومن الغريب أن بعض الأجانب الوافدين الذين يكتبون عن بلادنا الفصول والملاحظات الطائفة لم يفهم أن ينوهوا فيما يكتبونه عن القاهرة بأنها مدينة ألفية ، وأنها موطن الجامعة الألفية الوحيدة في العالم ؛ ذلك أن هذه الحقيقة التاريخية تثير حقاً أعظم اهتمام من كل أولئك الذين يضطرمون إعجاباً بعظمة التراث الخافئ ، ويحنون رؤوسهم لإجلال لروعة التاريخ

وإذا كانت القاهرة ليست هي المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم ، وإذا كانت أثينة ورومة والإسكندرية وقسطنطينية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها في مداه ، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس ، ودمشق ، وبغداد ، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعاً بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنباً إلى جنب ؛ فالآثار الفرعونية الباهرة التي تفيض فيها وراء القرون تشرف عليها مجللة بروعة الخلود ، وآثار العصور الإسلامية المختلفة تنبت في جنباتها وتسبغ عليها لونا إسلامياً عميقاً وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ ؛ ثم أن بشائر العصر الحديث وأمارات الحضرة الناصح ، وكل ألوان الحضارة المعاصرة بما فيها من تطور وتجديد وابتكار ، تطبعها بطابعها القوي ، فهي من هذه الناحية من أجل وأحدث العواصم القديمة ، بل هي تفوق من هذه الناحية عواصم العالم القديم : رومة وأثينة وقسطنطينية ، ومع ذلك فإن هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم ، ولم يخلع عنها تلك الروعة التي يسبقها تعاقب الاحقاب على الحواضر النالدة

كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويتنذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذي يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد ما لا يملك ويفقد غير الموجود ، فلا جرم لا يبال ولا يرجع عن رأيه مادام هذا الرأي لا يمر في منافعه ولا في شهواته ولا في أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا . أما والله لأضربنه بسيفي هذا فما يموت رأيه وهو حي .

ثم ركب النائب في عسكره وجاء الى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب

فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب الى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه فإكثر الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له : يا ولدي ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الانساني بل الالهى ؛ ونظر الى نائب السلطنة وفي يده السيف ؛ فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فبست ووقع السيف منها وتناول به روحه القوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : ياسيدي ما تصنع بنا ؟

قال الشيخ : أناذى عليكم وأبيكم

— وفيهم تصرف ثمتنا ؟

— في مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا

وكان الشرع هو الذي يقول (أنا) ، فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً واشتط في ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ . وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه . . .

ودمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التي أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! أمراء للبيع . . .

(ملطاً)

سفر دهر فرس